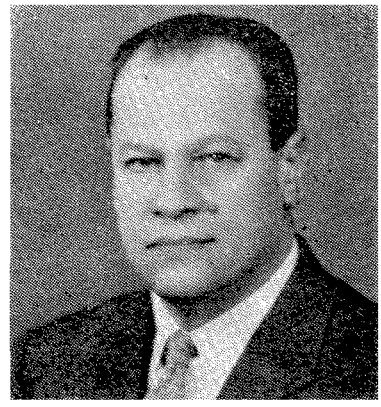

محاولة لفهم رواية "الطريق"

الصمت .. والجائعون إلى الحرية

بقلم صبري حافظ

(١) مقدمة ..

تؤكد (الطريق) .. رواية نجيب محفوظ الاخيرة ، ان كاتبها ما زال اكثر كتاب مصر التصاقا بالواقع اليومي الذي يصدر عنه ، واعمقهم فهما له ، واخلصهم موافقة لخطاه . فعبر مراحل تطوره الروائي المختلفة ، أثرى نجيب محفوظ هذه الحقيقة ودعمها بالرواية تارة وبالاقصوصة تارة اخرى . واثبت أن للفن دورا فعالا في تزويد احساس المتلقي بكل ما في الواقع من اخطاء ، وفي تعميق وعيه بشتى التناقضات التي يرتعش بها وجدان هذا الواقع . اذ اهتم نجيب دائما باكثر قضايا الواقع الحاحا للمعالجة ، ومركزها في المكان المحوري من كل اعماله الفنية . ومن هنا كان من الصعب أن نصل الى فهم حقيقي لاعمال هذا الكاتب الكبير دون ربطه بالواقع الموضوعي الذي ترتوي منه كتاباته ، تنهل من اكثر اباره عمقا . ودون فهم هذا الواقع فهما عميقا وشاملا ، يلقي دفقات من الضوء على هذه الاعمال ، ويساعد في الوقوف على وجهها الحقيقي . ولهذا السبب ذاته ، ولشدة التصاق الكاتب بالمناخ الحضاري الذي يصدر عنه ، وقع اغلب المفسرين لاعماله من غير المصريين بصفة خاصة ، في وهاد الفصل بين العمل والارض الحضارية التي ارتوى منها ، ومن ثم لاحت لهم هذه الاعمال العظيمة ، شديدة الافراق في العبث والميتافيزيقا . ومن اسف ان كثيرا من الكتاب المصريين وقعوا في هذا الخطأ . وبدت لهم اعمال هذا الكاتب العظيم وكأنها اشياء مجردة ومنبتة الصلة بارض الواقع ، واخذوا يدسون بين تضاعيفها تفسيرات لا يمكن ان نوحي بها النظرة الموضوعية السليمة اليها .

وقد سبق لنجيب محفوظ أن شجب كافة هذه التفسيرات المهومة في صحراوات التجريد ، حينما قال في معرض الحديث عن اتجاهه الروائي الجديد (١) ان « الاتجاه الحديث في الرواية الاوروبية ، يجعل للفلسفة الميتافيزيقية مكانا واسعا فيها » وان « هذه الظاهرة دليل على ازمة الحضارة الاوروبية ، فعندما يفلس الانسان ، وعندما تفلس الحضارة ، تتذكر الله » .. اما واقعنا المصري فان له فيه نظرة جد مختلفة ، ولذلك يقول « لا اعتقد ان تجاربي الجديدة في الرواية لها صلة بالازمة الاوروبية ، فهذه ازمة خاصة جدا . وما زال مجال الرواية متسعا امام الروائيين في كثير من دول العالم التي تملك فلسفة حياة ، وعقيدة انسانية » .. هكذا وبوضوح شديد يشجب نجيب محفوظ اي محاولة لاسدال اردية ميتافيزيقية او عبثية على انتاجه الروائي في المرحلة الاخيرة(٢) مؤكدا ان جدة الشكل في روايات هذه المرحلة وليدة جدة الواقع الذي يعالجه وجدة المضمون الذي تحتويه ، فحين تتحول الحياة الى مشكلة لا يصبح الانسان شخصا معينا ، بل مجرد انسان ، ليس هو شخصا بالذات يتميز عن سائر الناس بتفاصيله الخاصة وذاتيته ، ولهذا تختفي التفاصيل ويختفي السرد ، وتتصدر المناقشة كل العوامل الاخرى » .. اذ ان هم الكاتب الرئيسي هنا هو ابراز المشكلة التي تحتل المكان الرئيسي من لوحة التناقضات المجتمعية. ولهذا فان المعالجة الفنية لا تقدم في هذه الحالة صورة واقعية للواقع، او معاقرة فنية لاحدى شرائحه او قضاياه ، ولكنها تقدم من خلال الرواية، محاولة لتلخيص الواقع كمل ، لفسره باسلوب فني على ان يقول هنا موطن الداء ، على ان يمنح نفسه بطريقة اكثر وضوحا .. على ان يقول كل هذا من خلال احداث شديدة البساطة وممكنة الحدوث .. خاصة وان « الجديد دائما ليس هو الموضوع الذي لم يطرق من قبل ، بل هو الفنان . والفنان انسان وعصر وحضارة . وكل جيل يعطى وجهة نظره في موضوعات ثابتة في جميع الازمان » ويحاول ان يقدم من خلال هذه الموضوعات رؤاه المختلفة للواقع ، وكلما تجدد هذا الواقع وتغير ، تجددت المعالجة الفنية له وتغيرت هي الاخرى ، لذلك يقول نجيب « حين بدأت الافكار والاحساس بها يشغلني ، لم تعد البيئة هنا ولا الاشخاص ولا الاحداث مطلوبة لذاتها ، الشخصية صارت اقرب الى الرمز او النموذج، والبيئة لم تعد تعرض بتفاصيلها ، بل صارت اشبه بالديكور الحديث . والاحداث يعتمد في اختيارها على بلورة الافكار الرئيسية ... والخطورة هنا ان تفرض الفكرة نفسها على الواقع فلا تتلاءم معه . او تضطر لان تخلق له واقعا خارجيا (٣) ولكن حين تنبع الفكرة من الواقع ونتيجة لمعايشة خصبة له ، لا يوجد التناقض بينها وبين الواقع حين تحاول التجسد في شكل من اشكاله » و « في محاولاتي الاخيرة تنبع افكاري من الواقع ، لانه هو الذي يوحي بها ، وبالتالي فانها تعود اليه دون ان يكون هناك فرض او تناقض » .

يؤكد نجيب محفوظ في هذه الكلمات حقيقتين .. اولاهما انه شديد الالتصاق بالواقع المصري المعاصر ، وان معالجته لهذا الواقع في ظل ظروفه التاريخية ، هي التي استلزمت هذا الاطار من الواقعية الرمزية التي لا تقدم فيها الاحداث الواقعية لذاتها ، بل لما وراءها من رموز يحاول الكاتب بشتى الصور أن يشي لنا بها . وثانيتهما ... انه يعالج في روايات هذه المرحلة افكارا منبثقة عن معايشة حقيقية خصبة لجزئيات الواقع . وعن تفهم واع لاهم قضاياه ومشاكله ... واذا اضفنا الى هذا كله اعتراف نجيب الصريح بأن « هناك قضية كانت تلح علي دائما ، وهي قضية الالتزام .. ومع انه من الصعب جدا تصور وجود كاتب غير ملتزم ، او حتى وجود مواطن غير ملتزم . الا ان الالتزام بمعناه الاصطلاحي هو الالتزام بموقف تقدمي من الحياة » . فاننا نستطيع ان نخرج من روايات هذه المرحلة برؤية الكاتب لجزئيات واقعنا المعاصر ، ولوجهة نظره في كافة قضاياه ، وان نعثر على الوجه الحقيقي لرمايات

(١) نجيب محفوظ ، اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية ، مجلة الكاتب، فبراير ١٩٦٤ .

(٢) (اولاد حارتنا) و (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) و (الطريق) .

(٣) كما فعل كافكا في اغلب رواياته واقاصيصه .

هذه المرحلة ، ونستخلصه من تحت ركام التفسيرات العبثية والميتافيزيقية

وبصفة عامة فاننا نقول ان (الطريق) شديدة الالتصاق بواقعنا المصري المعاصر من جهة ، وبروايات المرحلة الجديدة عند نجيب محفوظ من جهة اخرى .. فبينها وبين هذه الروايات الثلاث اكثر من وشيجة وان كانت اكثر التصاقا بسابقتها (السمان والخريف) .. اذ تعتبر صدورا لشيا واعيا وعميقا عن الفترة التالية تاريخيا للفترة التي صدرت تعبيرا عنها (السمان والخريف) . ولاندراج الرواية تحت هذه المرحلة الروائية ، فاننا نستطيع ان نرصد عبرها كافة سمات هذه المرحلة (٤) من استعمال الضمائر الثلاثة في عملية القص الروائي ، الى التركيز على المنولوج الداخلي باعتباره وسيلة فعالة في كشف اعماق الشخصية والحدث على السواء ، الى تقلص الاسلوب السردي في عملية القص الروائي ، الى جدة الرؤية الاستاطيقية لابعاد الشخصية ، الى التداخل الموحي في الازمنة والنابع من بناء الرواية الفني الشديد النضوج .. الى شاعرية اللغة اسفرت عن وجهها الكامل في (الطريق) بالدرجة التي تدفعنا الى تسمية هذه الرواية .. بقصيدة شعر عظيمة .. اذ وصل بناؤها اللغوي الى الدرجة التي ينطبق عليها قول فاليري : ليس ممكننا ان تغير كلمة واحدة من كلماتها دون ان يختل بناؤها الفني ككل.. الى اندراج الرواية تحت ما اسميناه برواية البطل الواحد .

وهنا يجب ان نتريث قليلا لنناقش هذه السمة ، رواية البطل الواحد ، خاصة وان هذه السمة قد ارتبطت تاريخيا بمحاولة الفن التدعيمية لتأييد صعود الطبقة البرجوازية ، والتركيز على القيم الفردية ، وعلى عظمة الانسان الواحد ، من خلال تركيز العمل الروائي على شخصية العصامي .. النموذج المصغى لهذه الطبقة في مرحلة صعودها ، والذي يقف بكل فضائله في مقابل السيد الاقطاعي المتخم شرا ورذيلة .. وابرز مثال على ذلك رائعة دانيال ديفو (روبنسن كروزو). فهل جاء تركيز نجيب محفوظ على شخصية روائية واحدة ضمن هذا الخط ؟ ومن البداية نستطيع ان نقول لا .. ويؤيد هذا ان المرحلة الراهنة في واقعنا المجتمعي ليست في حاجة الى تأكيد صعود البرجوازية بأي حال ، فقد تضخمت هذه الطبقة بصورة واضحة ، وملكت زمام السيطرة تماما . وبرزت الحاجة واضحة الى فضح تيارات التفسخ والتهرؤ واللاانسانية السارية في اعماقها ، والى التنبيه الى جدران الصمت التي تسيج كل شيء ، والى قضبان السجن المرئية واللامرئية التي تحول دون الحقيقة والسفور . ومن ثم يجيء التركيز على البطل الواحد في هذه الحالة ضمن اطار محاولة الكاتب لتلخيص الواقع ، لاختيار اكثر النماذج دلالة عليه ، واخلصها تعبيرا عن كل ما يمور داخله من قضايا ، وافصاحا عن كافة ما فيه من ضغوط ، وعرضها داخل هذا الاطار الجديد من الوثاقية الرمزية التي يؤكد نجيب خلالها ان سعيد مهران (٥) وعيسى الدباغ (٦) وصابر سيد سيد الرحيمي .. ليسوا سوى صور منا .. مما يجول بخواطرنا .. وان بحثهم عن حقيقتهم، وصراعهم ضد القيم الشائعة ، جزء من بحثنا وصراعنا .. بل ان بعضا منهم يعبرون عما لا نستطيع نحن ، ولاسباب متشابكة ، الافضاء به .. ولما كان حديثنا هنا قاصرا على رواية (الطريق) وحدها (٧) فاننا نقول ان نجيب محفوظ يجسد من خلال صابر (بطل هذه الرواية) حالة كل شبان جيلنا ، الباحثين عن مجهول لا يدرون بالضبط كنهه ، الجائعين الى الحرية والكرامة والسلام ، الثائرين على صمت الواقع وركوده ، المزقين بين وعيهم بحقيقة هذا الواقع وعجزهم عن فعل شيء ازاءها ، الراغبين في تحرير وجه هذا الواقع من كل الشروط اللاانسانية التي تحكمه واستخلاصه من تحت ركام التفسيرات العبثية والميتافيزيقية .. وبذلك يكون هذا الاطار الفني الذي اختاره نجيب للافضاء من خلاله عما يدور في واقعنا ، اكثر الاطر الفنية تقدمية وثورية واعمقها تلخيصا لكل ما في الواقع من قضايا .. لانه الاطار الوحيد الذي تلوح خلاله رؤية الكاتب الواضحة لكافة ما في الواقع من قضايا ، وايضا وجهة نظره فيها . ولنتجاوز الان عتبات المقدمات لنتناول الرواية ذاتها .. ولنرى كيف انها بحق تعالج افكارا نابعة عن المعايشة الخصبة للواقع ، ومرتدية في الان نفسه احداثا منحوتة من جسد هذا الواقع ، وشرائح مقتطعة منه .

(٢) الاحداث ... ماذا وراءها ؟!

من البداية اقول ان ثمة شركا منصوبا امام ناقد هذه الرواية ، اذ ان بناءها الفني الشديد التعقيد ، يضع الناقد مباشرة امام ذلك التساؤل : ترى ، عن أي شيء يبحث صابر ؟ او من هو سيد سيد الرحيمي ؟.. ومن ثم يزج به في سرداب قد يفضي الى لا شيء . اذ ان افتراض معادل رياضي ما لشخصية هذا الاب المفقود ، ما يلبث ان يلقى بظلاله الكثيفة على كل ما يدور داخل الرواية من احداث . يفسرها على ان تقول ما يؤكد ذلك الافتراض ومن ثم قد يستنطقها بما لا توحي به النظرة الموضوعية المصوبة اليها ضمن الاطار المجتمعي الذي صدرت عنه .. وفي الرواية الى جانب هذا الشرك الرئيسي شرك آخر ينحت ملامحه من محاولة العودة بانغماس صابر في الرذيلة الى ماضيه « الملوث بالدعارة والجريمة » (٨) انطلاقا من الدعوة القديمة التي الصقت الطبيعية عنوة بأدب نجيب محفوظ .. وشرك ثالث يعثر على ملامحه عند درس الرواية بين زمرة روايات البحث التقليدية .. ورابع تنصبه التهويمات القائلة ببوليسية الرواية .. وحتى نتجنب الوقوع في هذه الفخاخ سنحاول ان نقترب من الرواية مستعينين كلما امكن ذلك بنصوص منها . حتى تستطيع محاولتنا التفسيرية لها ان تظهر مدعمة بالنصوص، وحتى لا يبدو فيها اي اثر لاسدال اردية تفسيرية من خارج الرواية على ما يدور داخلها من احداث .

ففي (الطريق) معاقرة رائعة لجزئيات الواقع المتناهية الصغر ، والمبثوثة بذكاء ومهارة نادرين حول خط الاحداث الرئيسية . مما يعمق هذه الاحداث ويثريها بالدلالات . فتتمكن الاحداث البسيطة من ان تشي لنا بكافة الافكار الاساسية التي يريد الكاتب الكبير ان يقدمها لقارئه ، ومعها معالجته ورؤيته لاهم القضايا التي يرتعش بها وجدان الواقع . وتعمق الناقد لهذه الجزئيات المنثورة بذكاء حول خط الاحداث الرئيسي، هو الذي سيقع به حتما على ملامح الازمة الحضارية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا .. اعني ازمة الحرية .. فاذا كانت (اللص والكلاب) اكثر روايات المرحلة الاخيرة وضوحا في معالجتها لهذه الازمة، فان (الطريق) اكثر روايات هذه المرحلة ثراء .. فقد استطاعت ان تقول بأسلوب فني ان ثمة صمتا شديدا يحاصرنا .. وان ثمة جوعا شديدا الى الحرية . .وان تترك في الاعماق منا اثرا وجدانيا ينحت ملامحه من الحالة الحسية التي تخلفها القراءة الواعية للرواية ، حالة الضيق الشديد باجحاف الواقع ، والاحساس بأن كل الظروف التي حاصرت خطى صابر وكبلتها انما تكرر نفسها بصورة مذهلة داخل كل منا .. هذه الحالة التي تشبه الى درجة كبيرة ، الحالة الحسية التي عاناها لينين وهو طالب شاب بعد قراءته لرائعة تشيكوف (العنبر رقم ٦) .. اذ صحا ليلتها من نومه مفزوعا ، واخذ يذرع حجرته جيئة وذهابا ، وفي الصباح ارسل خطابا الى اخته يقول فيه « عندما انتهيت من قراءتها مساء امس ، شعرت بالرعب ، ولم استطع ان اغادر غرفتي ، بل قمت وخرجت ، كان شعوري انني اصبحت سجينا في العنبر رقم ٦» .. ولنحاول الان الاقتراب من احداث الرواية .

فمع انفاس الخريف تبدأ احداث الرواية .. مع انفاس الخريف

---

(٤) سبق ان بينا هذه السمات بالتفصيل في مقالنا (الاتجاه الروائي الجديد عند نجيب محفوظ) ، الاداب ، نوفمبر ١٩٦٣ .

(٥) بطل رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) (٦) بطل رواية نجيب محفوظ (السمان والخريف) .

(٧) سبق لنا الحديث عن (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) في الاداب ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٣ على الترتيب .

(٨) نجيب محفوظ ، (الطريق) ، مطبوعات مكتبة مصر ، القاهرة ، مارس ١٩٦٤ ، ص ١٨

يصحو صابر وقد احتكت اصابعه بشيء شديد الصلابة .. يصحو على جهامة الواقع وعبوسه كما صحا من قبله عيسى الدباغ وسعيد مهران وكما صحا جوزيف ك (٩) وجريجور سامسا (١٠) .. وللصحوة والتوقيت دلالتان .. فاذا كانت صحوة ك اوسامسا بطلي كافكا ، هي صحوة دامية على لا معنى الواقع ولا جدوى الوجود فيه ، فان صحوة صابر هي صحوة التوق الى ان يهب هذا الواقع المعنى ، ان يقسره على ان يصرخ هنا مكان الداء .. وهذه هي الاسباب الراسمة للازمة . ودلالة الصحوة هنا تعني بداية الوعي بتناقضات الواقع ، او ذروة الوعي بهذه التناقضات . وتعني في الان نفسه ان الواقع قد وصل الى مرحلة من التأزم يستحيل معها الوقوف بلا مبالاة حياله . اما دلالة التوقيت فانها تعانق دلالة الصحوة وتثريها ، فالخريف هو الفصل الواعد بتباشير الجدب .. ينزع عن الاشجار اوراقها ، واشيا بمقدم الشتاء الذي سيعري كل شيء ، ينثر الجفاف بين طيات الحياة .

والصحوة على هذا الواقع الخريفي شديدة الرعب ، لانها تعي كل ما يعد به هذا الواقع من اجداب وذبول اكيدين ، وهي في الوقت نفسه عاجزة عن صد جحافل الخراب الراكضة فوق اشلاء الواقع المأزوم .. ومن ثم فانها تعرب عن نفسها خلال ايماءات جزئية ناقدة لما في هذا الواقع من تفسخ . ويفرض هذا الموقف المأزوم على الرواية توترا عنيفا ينثر الازمة داخل كل جزئياتها . ومنذ اللحظات الاولى ، عانق هذا التوتر الصحوة المفاجئة على جهامة الواقع وغرابته ، وبدأ العالم الخارجي يقدم تحدياته المستمرة لبطل الرواية عقب فقدانه الاليم لامه التي كان يعيش في فيئها ويمارس كل حاجاته تحت استار حمايتها وحنوها « يقولون لم يقف هكذا غريبا في منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا ؟ لم نحته امه عن بيئته ثم تركته وحيدا ؟ انهم لا يعزونك ولكنهم يدارون شماتتهم بك . ومذاق الحياة امسى كالتراب » (ص ٥) ... منذ اللحظة الاولى يقدم الواقع الخارجي التحديات ، ويؤكد في الوقت نفسه تمايز البطل عن بقية الموجودين حوله . خاصة وان هؤلاء الموجودين حوله ليسوا اكثر « من تاجر مخدرات الى برمجي ومن بلطجي الى قواد » (ص ٦) .. ذلك التمايز الذي يعرب عنه كونه اكثر وعيا من بقية المحيطين به بمأساوية هذا الواقع وبجوه الخريفي الكئيب .. ومن الصحوة المفاجئة على الواقع اللامألوف الذي ينحت لاالفته من تغير الواقع الداخلي للبطلة ، بعد صحوته على الحقيقة الدامية ، ومن انعكاس هذا التغير على رؤيته للواقع الخارجي .. فـ « ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها ، انه وحيد ، بلا مال ولا عمل ولا اهل . ولم يبق له الا امل غريب كالحلم ، انه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته ، وهي مسؤولية لم يتحملها من قبل ، اذ نهضت بها امة وحدها ، ففرغ هو طول الوقت لامتاع شبابه اليافع » (ص ٧) .. هكذا يصحو صابر فجأة على واقع لا مألوف .. وحتى الواقع الخارجي الذي كان مفروضا ان يحتفظ بحيدته ، فقد الفته العادية ودارت فيه احداث لا متوقعة .. « وفي نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر » (ص ٧) .. وبذلك انعدمت الالفة تماما بين الانسان والواقع الخارجي الذي يتعامل معه ، وانتفى الانسجام بينهما عقب صحوته المفاجئة على الحقيقة الخريفية لهذا الواقع .. عقب انزياح الستار فجأة عن كل ما خلفه من خبايا واسرار . لذلك فان انعدام الالفة في (الطريق) لا تتم بين البطل والاشياء التي يتعامل معها ، كما هو الحال عند الان روب جرييه ، بل بينه والعلاقات الانسانية التي يعيش ضمنها ، بينه والواقع الموضوعي ككل . الواقع الفاقد للموضوعية والمنتفية منه ابسط شروطه الانسانية .. الحرية والكرامة والسلام .. الحب والطمأنينة والعمل.. فكل من حوله « مهرة في خداع الناس بمظاهرهم » (ص ١٩) .. يداري كل منهم بالاقنعة والمساحيق حقيقة الزيف والخواء الذي يعبق في الاعماق منه .

وسط هذا الواقع الشديد الصلابة يختلط بالحقيقة الحلم .. « والان اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امك التي ما تزال نبرتها تتردد في اذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث في الحياة .. وانت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » (ص ١٨) ... ويلجأ صابر الى البحث عن ابيه المفقود الذي يمثل له كل القيم المفقودة في الواقع .. الحرية والكرامة والسلام .. ولكن الجواب في كل مرة كان يجيئه كجدار السجن « غير معروف لدينا » (ص ٢٠) لانه كمعادل للقيم المفقودة فقد ملامحه من طول الغياب .. حتى العارف بالله الهائم في اجواء البخور والغيبيات (ص ٢١) لم يتعرف على اي شيء منه وان حدس وجوده . ويعانق اليأس كل محاولات البحث في الاسكندرية ، مراتع الصبا والماضي واللاوعي ، ومن ثم فانه ينزح الى القاهرة بعد ان يبيع كل متعلقاته في الاسكندرية .. المنزل والاثاث والاصدقاء والماضي . او بمعنى اكثر وضوحا ، بعد ان ينزع جذوره تماما من ضبابية جوها الخريفي ومن ماضيه الملوث بالاثم والدعارة واللاقيم .. وبعد ان نزع جذوره من تربتها تماما .. لاحت له والقطار يرج الارض مبتعدا كحلم خريفي انقضى .. « رآها مدينة من الاطياف مغروسة في حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الانيقة شبه الخالية . وودعها هي وامه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة » (ص ٢٥) .

وفي القاهرة ، يعرب الواقع عن وجه جديد منذ اللحظة الاولى .. « وانت اليوم وحيد بلا اهل ولا اصدقاء كأنك من جنس غريب . وهالة الزحام في محطة مصر فالح عليه شعور بالوحدة . ونازعته نفسه الى العودة في اول قطار » (ص ٢٥) .. ان هذه الاحاسيس الجديدة تماما على صابر تولد معلنة عن ميلاده الجديد ... بعد ان دفن الماضي كله في اقصى الشمال .. وبعد بحث قصير يعثر على مستقره في هذا الواقع الجديد .. فندق « القاهرة » .. بكل ما يوحي به الاسم من

---

(٩) بطل روايتي كافكا (القلعة) و (المحاكمة) .

(١٠) بطل رواية كافكا (المسخ) .

بعد دراسات وابحاث استغرقت عدة سنوات ، تمكن علماء الكيمياء من اكتشاف :

DUO SUISSE

الدواء العجيب الذي يزيل قشرة الرأس والحكاك وبعض تساقط الشعر

مختبرات ديو سويس ـ سويسرا

الوكلاء العامون والموزعون

منيمنة ـ شارع البرلمان ، بيروت

دلالات تلخيصية ... وصاحب هذا الفندق ، او بمعنى اخـــر صاحب « القاهرة » هو خليل ابو النجا ، بكل دلالات القدم التي ينفثها الاسم . وبوجهه المفضن الكئيب الذي يصلح رمزا للموت « انت سر من الاسرار يا عم خليل . وجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان . ولـم يرتكب الناس الاخطاء بلا تبصر » (ص ٣٥) .. وبزوجته الحلـوة الصغيرة الشهية التي توحي لصابر منذ اللحظة الاولى بذكريات الانطلاق المعربـد في الاسكندرية ، ترتبط باولى تجاربه في التعرف على الحياة « توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة في الضباب » (ص ٢٦) .. «السمرة الرائقة النقية ، والعينان اللوزيتان الدعجاوان ، وبريقهما المضيء المفعم بالنبض والاقتحام » (ص ٢٦) .. ولذلك كله مـا تلبث الاحاسيس الكئيبة المفاجئة والمصاحبة للحظة الميلاد ان تتلاشى .. وتلـوح بوادر الفة بينه وبين الواقع الجديد .. « وسرعان ما توثقت علاقات خفيـة بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد » (ص ٢٦) .. بل ان بـوادر الالفة ما تلبث ان تستحيل الى تفاؤل .. « وشمله شعور تفاؤل عجيب فقال انه على نحو ذلك سيعثر على ابيه . والمؤكد بلا ادنى شك ان هـذه الفتاة على استعداد . استعداد لشيء ما . انها تقف منه موقفا حياديا في الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه واعماقه بالف لسان . ولا شك ان وراء هذه القشرة الناعمة الصامتة اللامبالية مدينة مسحورة » (ص ٣٠).. فقد اعرب الواقع منذ اللحظة الاولى عن حيدته الظاهرية .. ولكنه مـا يلبث ان يدرك ان هذه الفتاة التي هزت منه الاعماق ، فريسة لمغالطـه رهيبة .. نزت اعماقه فزعا حينما عرفها « ليعترف بأن هذا لم يجر لـه في بال ، وكم بدا له مزعجا » (ص ٣٣) .. مغالطة الزمن .. فهي زوجة لصاحب الفندق العجوز الذي جاوز التسعين ، والذي يتمثل لصابـر منذ البداية كعلامة للموت ، ويقف الموت في مواجهة الحياة ومن هنـا تكتسب علاقة صابر بكريمة ، زوجة خليل ابو النجا ، الفاتنة الحلـوة العطاء الكريمة بحق ، ابعادها . اذ تدخل هذه العلاقة ضمن اطار رغبته الملحة في ان يحرر الواقع من صورته المجحفة واللامألوفة ، ان يسيطـر العجوز الكئيب المتصدع ، على الفتاة الحلوة المتدفقة بالحياة . وضمن توقه الى بث شروط الحياة المألوفة داخل طيات هذا الواقع . ومن ثـم التحمت الفتاة في عقله منذ تكشفت له ابعاد مأساتها بالاب المفقـود « وفي لمحة واحدة تجلت لمخيلته صورة ابيه والوجـه الدافيء المفعم بالاثارة » (ص ٣٣) وهتف بحرقة حقيقية واسى بعد ان تعرف علـى ابعاد المأساة .. « ومغالطة الزمن اليست مسلية » (ص ٣٥) .. بعـد ان اعرب له عم خليل انه من طول ممارسته لهذه السيادة على الحيـاة قد خرج بأن « لا شيء مسل على الاطلاق » (ص ٣٥) .. ويستمر فـي تعاطفه معها منذ اللحظة الاولى غير مضيع لفرصة واحدة دون ان يعـرب فيها عن توقه لتحريرها من ربقة هذا الواقع المجحف .

غير ان هذه العلاقة لا تقدم الا وجها واحدا مـن وجوه العالم ، الواقع كما هو كائن ، ولذلك كانت مضاجعته الجنسية لكريمة معـادلا لالتصاقه الحميم بجسد هذا الواقع .. واذا اضفنا الى هـذا دلالات الاسم ـ كريمة ـ وصيحته الجذلانة المتخمة شبعا ، بعد ان منحته نفسها بسخاء « قلت انك اكثر من كريمة » (ص ٦٢) تيقننا ان نجيب لـم يقدم من خلال هذه العلاقة سوى وجه واحد من وجوه هـذا الواقع .. الواقع كما هو كائن .. لذا كان ضروريا ان ينشيء نجيب علاقة يسفر من خلالها عن وجه الواقع كما يلوح في الحلم ، الواقع كمـا يجب ان يكون . فكانت الهام ، التي لاحت بجانب دلالات اسمها المرتبط بالحلـم « رشيقة نحيلة لفت انتباهه في وجهها تناقض محبوب جمع بين سمـرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الوجه والرأس غاية في الاناقة والابداع» (ص ٣٩) .. والى جانب ذلك فان « العقل ينصحه بان يهجر الهـام ولكنه لا يستطيع ، هي كأبيه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق» (ص ٩١) .. ولذلك فان الاحتفاظ بها يستلزم الاستمرار فـي اسدال ستار بينها وبين الواقع كما هو كائن فعلا .. يستلزم الكذب عليهـا « ثاني كذبة يكذبها عليها وهو كاره ، رغم انه لم يكذب بعد على المـرأة الاخرى » (ص ٧٢) .. وكلما اضطر الى اختلاق كذبة جديدة ، او كلما فسرت اكاذيبه بطيبة طوية صرخ في اعماقه « لعنة الله علـى الكذب . لذلك يفقد حديث الهام معناه كأنه الصمت » (ص ٩٠) .. ذلـك لان هذا الحديث ليس مبنيا على اساس المعاقرة الحقيقية لجزئيات الواقـع المعاش ، بل وليد الرغبة الحلمية في تجاوز الزمان ، لمعايشة الواقـع المرجو .. الواقع كما ينبغي ان يكون .. كما يلوح في الحلم رائعـا وواعدا بالحياة الحقيقية المكتظة بالحرية والكرامة والسلام والطمأنينـة والعمل .

وعلى طول الرواية ، يعانق الواقع الحلم ، كريمة والهام ، تـدور المقارنة بينهما دائمـا ، المزاوجة بينهما دائما ، لانهما وجهـا الواقـع الملتصقان المتنافران ابدا .. الواقع كما هو كائن ، وكما ينبغي ان يكون .. « ولكنه مع الهام تعذبه كريمة ومع كريمة تعذبه الهام ، والتوحيـد بينهما امنية لا يجرؤ على تمنيها (ص ٨٨) .. فلم يعش لحظـة مـع الهام دون ان تخطر على باله كريمة ، فالحلم لا يبعد الواقع وان ابعـد هذا الواقع الحلم بعض الشيء .. اذ نادرا ما يتذكر الهام وهو مـع كريمة .. ولهذا التناقض الحاد كانت استحالة الجمـع او التوفيق بينهما . غير انه في كلتا الحالتين ، المعايشة الحقيقية للواقع كما هـو كائن ، والمعايشة الحلمية للواقع كما ينبغي ان يكون .. كانت اطيـاف الاب المفقود تحوم بالحاح .. وان ارتبط بالحلم اكثر لافتقاده تمامـا في الواقع ... اذ لاح له في احد احلامه ابا لالهام .

ويستمر تمزق صابر بين الحالتين ... الواقع متجسدا في كريمة يقدم حلولا دامية للازمة تقود الى الجريمة « كريمة مثلك تمرغت فـي التراب طويلا ، وهما يتفاهمان حتى على البعد . وفي اعمق لحظـات الحب الحارة تتمالك انفاسها لتهمس في اذنه .. متى تختفي العقبـة التي تهدد حبنا .. فيمسه رعب الوعي كصفعة مباغتة وتهمس تضاعيف الظلام بالجريمة » (ص ٩٠) .. تلك الجريمة التي بدا تجنبها مستحيلا الا في حالة واحدة فقط .. هي حالة وجود الاب المفقود .. حالة تخلص الواقع من وجهه اللاانساني الكئيب . والواقع في الان نفسه شديـد التوتر ولا يقبل التسويف بأي حال . ذلك لان اي تسويف في مواجهته يعني التسليم بشروطه المجحفة .. يعنـي استمرار الوجـه اللاعادل يمارس فعاليته ... يستنزف حيوية كريمـة وخصوبتها ، اذ يمتص نضارتها الانتظار الطويل للتحرر من ذلك الذي يصلح وجهه رمزا للموت، المسيطر وحده على كريمة ، والمالك للفندق ، ولمصير صابر ، ولكل شيء ... انتظار ان يموت ، ولكنه مصر على ان يستل نضارتها ، قبـل ان يستل الموت من بين جنباته الحياة .. ويلتهم الانتظار فـي الان نفسه نقود صابر .. يطرده من فوق وجه هذا الواقع ، ليضطره الـى العودة من جديد الى الارض التي عاش فوقها آمنا .. الاسكندرية .. لانـه عاش جاهلا بالحقيقة ... ولكنه ان عاد اليها اليوم فلن يستشعر فيهـا الاطمئنان والرغد الذي عاشه من قبل .. فقد ماتت الام التي عاش فـي فيئها .. وتفتح وعيه على حقيقة الاب المفقود الواعد بالحرية والكرامة والسلام .. وعلى حقيقة كريمة الرازحة تحت اغلال خليل ابو النجا ، والمالكة الحقيقية لكل شيء « هذا الفندق .. والمال .. كـل شيء باسمي انا .. والرجل هو المتصرف في ماله طالما انه على قيد الحياة » (ص ٦٤) .. وعلى حقيقة الهام الواعدة بالمعجزات « آه .. ليس لحنا جميلا فحسب . معجزة ايضا . هل كنت تحلم بذلك !.. رأس مال بـلا سرقة ولا جريمة . ومعه الحب الحقيقي . اذن رد الحياة الى عم خليل واستيقظ من الكابوس » (ص ١٤٧) .. وعلى يقظته المفاجئة علـى حقيقة الواقع ووعيه الجزئي بها ... « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم . وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل ان تنفجر مرعدة مزبدة » (ص ٧٠) .. الواقـع الذي لا شيء فيه .. « لا شيء الا الظلام وصوت الصمت » (ص ١٠٦) .. هذا هو ما يقدمه الواقع.. تحديات مستمرة ما تلبث ان تفضي الـى الجريمة . اما الحلم .. الواقع كما ينبغي ان يكون .. فقـد وعـد

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

الصمت والجائعون

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢١ ـ

بأشياء مختلفة تماما ... الراحة والعمل والكرامة ونفض الماضي كله في غمضة عين . ثم الزواج من الرشيقة الحلوة ، التي لاحت في الحلم ابنه لهذا الاب المجهول المعجز الذي وهب غيابه الازمة والضياع واللاحرية .

وبين الحلم والواقع والاب المفقود يبعثر نجيب محفوظ اعماق بطله ثم يجمعها في نسيج مأساوي يقدم خلاله رؤيته لقضية واقعنا المصري المعاصر .. الذي يتمزق ابن الانسان تجاهه ، تمزقا يدخل ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. ويذكرنا في الان نفسه برائعة سارتر (دروب الحرية) فاذا كانت مضاجعة ماتيو لمأساة التمزق الضارية التي عاشتها بلاده في (دروب الحرية) قد جاءت ضمن الاطار العام لتوقه الى العثور على حريته .. حريته المفقودة تماما رغم ولوجه كل السبل المفضية اليها .. واذا اسلمنا بالصدق الفني لدى كل من سارتر ونجيب محفوظ ، واخذنا الظروف الموضوعية التي صدر عنها كلا العملين في الاعتبار (دروب الحرية) و (الطريق) ... فرنسا اعوام الهزيمة ومصر اعوام الصمت ... لامكننا ان نقع بسهولة على المعادل الموضوعي لكافة ما في الطريق من احداث . ولاستطعنا ان نفهم بيسر كل الاحداث التي تبدو للوهلة الاولى مفرقة في البوليسية والتطويل.. ولادركنا بحق الوجه المعجز لهذا العمل الروائي الفذ التركيز والتري بالدلالات والشديد الالتصاق بالواقع . ولاستطعنا ان نقع على الدلالات الغنية لفشل البحث عن طريق الاعلان واخفاق البحث عن طريق التليفون .. ولا جدوى الاستدلال على الاب المفقود عند مشايخ الحارات او في السجون ... وغير ذلك من الطرق التي تنكبها صابر في سبيل البحث عن ابيه المفقود .. بل لادركنا ايضا حقيقة (الطريق) المفضي الى هذا المجهول المعجز .

وبين دوامات البحث عن هذا المجهول المعجز . تمزق صابر .. اذ كان يواجه في آن واحد ، محاولات التزييف العديدة لوجه هذا الواقع ، وتهديد النقود الموشكة على النفاد ، ودوي الصمت الذي يحاصر كل شيء ، والوجه اللاعادل للحياة .. اما الزاد الذي كان يستعين به على الحياة طوال هذا الوقت ، فقد كان يتناوله بما في ذلك الخمور من « بقالة الحرية » ... وكان الواقع يضعه مباشرة امام حلول ثلاثة عليه ان يختار واحدا منها .. « ارجع الى الاسكندرية واعمل قوادا لاعدائك . اقتل واغنم كريمة ومالها . استخرج الرحيمي من الظلمات وتزوج الهام » (ص ٩١) .. فلماذا اختار الحل الثاني دون بقية الحلول ؟. الحل الاول يبدو مستحيلا .. اما الحل الثالث فانه بحاجة الى بعض النقاش . فمن البداية اكدت كل الشواهد ان الرحيمي موجود .. تأكيد أمه القاطع بوجوده وهي على فراش الموت .. خليل ابو النجا الذي عاش زمنا طويلا يضيق عينيه حينما يسأل عنه ويقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) .. ومقابل هذا يؤكد احسان الطنطاوي « انا رجل عشت في مختلف الاوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. ويتمتم بذهول حينما يرى صورته « يا له من شخصية » (ص ٥٢) .. ويعلن عنه فيأتي كثيرون كل يدعي انه هو « اتصل به سيد سيد الرحيمي الحلاق ببولاق ، وثان مدرس لغة عربية ، وثالث سائق ترام ، وقابلهم واحدا فواحدا ، كما قابل الدكتور من قبل ولكن لم يكن لاحد منهم علاقة بمن يبحث عنه . اين من يبحث عنه اذن ؟. ولم لم يتصل به كما فعل الاخرون ؟ » (ص ٤٦) .. ولاحت محاولات عديدة لتزييف هذا الاب المفقود ، بله التشكيك في وجوده نفسه عبر السبل المختلفة التي تنكبها صابر من اجل الوصول اليه . ولنتعمق هذه الوسائل التي مارس صابر من خلالها بحثه عن ابيه ، او بمعنى اكثر وضوحا (الطرق) المختلفة التي سلكها في سبيل الوصول اليه ، لنرى لم لم توصله هذه الدروب الى الاب المفقود ؟.

في البداية برقت السخرية عبر كلمات مشايخ الحارات وهو يسألهم عنه ، وكأنهم يبتسمون اسى لسذاجته . وفي سجلات السجن او المحراك لم يجد اسمه ، وادعى كثيرون عبر اسلاك التليفون انهم هو، ولكن المواجهة الحقيقية كانت تفضح محاولاتهم التزييفية له . ثم اتصل به رجل مجهول ساخر وهو اهم من اتصلوا به وبالتالي فان تفسير هذا الاتصال ، وهذه الشخصية سوف يلقي دفقات ضوء شديدة على حقيقة سيد سيد الرحيمي من جهة . وعلى عقم الدروب التي يسلكها صابر للوصول اليه من جهة اخرى . والتفسير الساذج الذي قدمه عبد الرحمن فهمي (١١) .. لهذه الشخصية بعيدا عن حقيقتها لدرجة كبيرة، اذ صوره عبد الرحمن فهمي بسذاجة ، او بدون فهم لا ادري ، احد معارف امه الذين يتشفون فيه ، بينما التعمق البسيط لاحداث الرواية يؤكد ان نجيب قد قطع كل الصلات بين صابر وماضيه تماما . كما ان طبيعة الحوار الذي دار بينهما ـ صابر والرجل المجهول ـ لا يشي بذلك . فقد اكد ذلك الحوار حقيقتين .. اولاهما ان صابر لا يعرف بالضبط وبصورة محددة ماذا يريد من ابيه المفقود . وثانيتهما ان سيد سيد الرحيمي الحقيقي موجود بصورة قطعية ، وانه في مكان لا يمكن الاستدلال عليه بسؤال المارة . كما ان الاستدلال عليه عن طريق الاعلان في الصحف وسيلة جد عقيمة وجد ساذجة .. تماما كأن تعلن في احد الصحف بأن .. الحرية والكرامة والسلام مفقودة ، من يعثر عليها او يعرف مكانها ، يتصل بصابر سيد الرحيمي بفندق القاهرة .. ولذلك يصرخ فيه هذا الرجل المجهول بعد ان اكد له فشل طريقة الاستدلال عليه بسؤال المارة « حقيقة انك حمار » (ص ٥٩) .. تصفعه الكلمات بعد ان « حرق ساعات النهار في البحث والسؤال مندفعا باصرار محموم» فـ « يرد الى نقطة البدء ودون بادرة أمل » (ص ٥٩) .. ان هذا الشخص المجهول في رأيي اما انه سيد سيد الرحيمي الحقيقي والذي لا يهب نفسه بسهولة قد رثى لحال باحث عنه فأتصل به ليقول ليس هذا هو الطريق .. او انه ـ وهذا هو الارجح ـ واحد من الذين يعرفون الطريق الحقيقي الى سيد سيد الرحيمي . ويعرفون في الان نفسه عقم الدروب التي يجوسها صابر ، ومن ثم يتصل به ليقول هو الاخر .. ليس هذا هو الطريق .. وبهذا فان نجيب محفوظ يؤكد عبر وسائل البحث تلك حقيقتين ، احداهما ان هناك محاولات عديدة لتزييف الوجه الحقيقي لسيد سيد الرحيمي .. والاخرى ان هذا ليس الطريق اليه.. ويكفي فقط ان يقول نجيب هنا ليس هذا هو الطريق .. فهذه المقولة في حد ذاتها ، والتي سبق أن تردت في جنبات (اللص والكلاب) مقولة تقدمية في هذه الظروف .. وتحضرني بهذه المناسبة الكلمات المضيئة التي قالها بيير كوري ردا على سؤال احد مساعديه ..

ـ علينا ان نكف عن هذه التجارب ، لقد اجرينا مائة تجربة لم توصلنا الى اي شيء .. فما جدوى كل هذا ؟! واجاب بيير كوري العظيم.

ـ يكفي اننا عرفنا ان ثمة مائة طريقة ، لا توصلنا الى ما نريد .

ذلك لان معرفة الطريق الخاطيء هي اولى الخطوات في سبيل الطريق الصحيح .. هذا وقد اشار نجيب في هذه الرواية ، وفي (اللص والكلاب) ايضا الى بعض معالم الطريق الصحيح . عبر بعض الاشارات الايحائية السريعة « السبل مسدودة لحد الاختناق » و«العمل! هو الذي يحل مشكلتنا » (ص ١٢٣) .. كما اكد في نهاية الرواية أن سيد سيد الرحيمي موجود فعلا .. وان مأساة صابر الدامية لم تذهب هباء .. وان كان يومىء الى ان العثور عليه لن يتم عن طريق المواجهة المباشرة بل عن طريق البرهان (١٢) المؤكد لوجوده في بقاع اخرى من العالم .. يمارس الحب ويرتع بحرية شديدة عبر البلاد الاخرى ، غني

---

(١١) في معالجته الاذاعية للرواية باذاعة القاهرة .

(١٢) كان باسم الرجل الوحيد الذي تعرف بحق على سيد سيد الرحيمي .. على برهان .. لاحظ دلالة الاسم هنا .

يملك الملايين من « الجنيهات التي اقتناها من تجارة المشروبات الروحية» (ص ١٨٠) التي تحرر العقل من كل قيود الواقع فيمنح نفسه بحرية.. ويدمر قضبان الصمت .. ولكن توضيح ابعاد شخصيته بهذه الطريقة.. تدفع صابر الى اولى درجات الطريق اذ يهتف « وبسبب هذه المعرفة الطارئة اصبح الرجل اعز منالا من الاول » (ص ١٨١) .. ذلك لان المعلومات التي وصلته عنه اكدت وجوده واكدت في الان نفسه صعوبة العثور عليه ... وتترك الرواية صابر وهو يهز منكبيه استهانة بيقين المحامي ، وبالحكم بالاعدام وبكل شيء .. قائلا « فليكن ما يكون » (ص ١٨٥) .. تماما كاستسلام سعيد مهران لرصاص الطلاب « بلا مبالاة » .. وكان هذه اللامبالاة ، هي صرخة الاحتجاج الوحيدة التي يسمع بها الواقع المجلل بالصمت واللامرية .

بذلك نكون قد قدمنا الهيكل العظمي لخريطة العلاقات الانسانية داخل الرواية ، وحتى تستطيع كافة هذه العلاقات ان تكتسب وجهها الحقيقي تلزمنا دراسة تفصيلية لاغلب الشخصيات الرئيسية في هذه الرواية ، حتى تظهر اعماق كل شخصية واضحة وناضجة بما تحتويه من معان ودلالات . وحتى تكتسب خريطة العلاقات الانسانية في الرماية بعد ذلك كافة ابعادها الرمزية .. ولنبدأ الان في التعرف على كل شخصية على حدة ..

(٣) بسيمة عمران .. يا بلدي الحبيب

رغم ان الاشارات التي تناولت هذه الشخصية قليلة للغاية ، الا انها كانت كافية لان تؤكد اهميتها من جهة ورمزيتها من جهة اخرى ، خاصة وانها كانت أم بطل الرواية ، او بمعنى اكثر مباشرة الجذور التي ارتوى منها حتى يناعة شبابه .. كما انها كانت العارفة الوحيدة طوال ثلاثين عاما بحقيقة ذلك الاب المفقود المعجز ، المسيطرة في الان نفسه على وجه الواقع الذي عاشت فيه اذ كانت اعتى نساء الليل في الاسكندرية قاطبة ، الحادبة الرؤوم على وليدها المدلل الوحيد ، والتي مارست شتى صنوف السيادة والسيطرة .. غير ان نجيب لم يشر الى هذا الجانب العريض من حياتها الا بأشارات خفيفة للغاية ، ولم يحاول ان يقدم لنا دلائل هذا العز وهذه السيادة ... ذلك لانهما تلاشيا في الفترة الاخيرة ، ومن ثم عمق تلاشيهما من مأساوية الوضع الراهن المذل ، وبدأت الرواية في اللحظة التي ماتت فيها هذه الام تماما ، ولاحت في كفنها على اعتاب المقبرة كالخيال « شد ما هزلت يا اماه ، وتوارت عن ناظريه تماما فلم يعد يرى الا ظلمة ، وسطعته رائحة تراب » (ص ٥).. واقترن الظلام بغيابها ، واقترنت به الذكرى ، « كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ، ولكن لم يبق لها الا المقبرة » (ص ٦) .. ولاحت له صورتها بالامس بعد ان انهكها الاسى « وسارت في خطوات متثاقلة متخاذلة من الاعياء والضعف ، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقي الذي لم يجاوز الخمسين ، هكذا تبدت بسيمة عمران في اخر صورة لها » (ص ٧) .. وهي نفسها تصرخ مرهصة بنهايتها « امك انتهت يا صابر » .. بزحف التلاشي فوق سيقان الحياة . والسبب في ذلك يصرخ صابر « لعنة الله على المرض » (ص ٧) على انتفاء الاتساق والقوة والحيوية من جسم الواقع ، ولكن امه توقظه على السبب الحقيقي الذي استل مياه الحياة من الوجه المتورد « ليس المرض ولكنه السجن ، والمرض جاء من السجن ، امك لم تخلق لذلك ، وقالوا الكبد والضغط والقلب ، الله يمرض عيشتهم ، ترى الا يمكن ان ارجع الى ما كنت » (ص ٨) .. وهي الى جانب معرفتها بالداء مليئة بالحكمة «صابر .. تجنب الغضب .. انه الغضب ادخلني السجن » (ص ٩) .. وهو ايضا الذي ادخل ابنها . واثقة بنفسها رغم ولوغها حتى الاذنين في دوامات العار . رغم حياة العهر الدامية التي عاشتها في صبر ودأب ومقدرة .. على فراش الموت تنفث الدخان في غضب وتصرخ « امك اشرف من امهاتهم ، انني اعني ما اقول، الا يعلمون انه لولا امهاتهم لبارت تجارتي » (ص ٩) ... وعن الواقع الخارجي تعرف فكرة حقيقية وعميقة ، مكتظ بالانانية والتفسخ فالضياع .. ومن هذا لفت حول ابنها الاسيجة . حمته من تفسخ هذا الواقع وتهرؤه . لكن الان .. وقد استل الوهن من اليد الحانية قوتها ، وزحف اليأس على اشلاء الارادة الصارمة « انا انتهيت .. بسيمة ايام زمان لن تعود ، ولا سبيل الى العمل من جديد ، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس » (ص ١٠) .. واصبحت هذه حالة تلك التي « كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال ، وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة » (ص ٦٠) .. وتزعزعت لاول مرة في حياة صابر ثقته في امه . وادركت الام نفسها ان لحظة فقدانها لصحتها ومالها وسيادتها وحريتها عانقت في الان نفسه لحظة فقدان الابن « انت لا تفهم شيئا ولك الحق ، الواقع ان الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالي ، لم يعد لي الحق في امتلاكك انت ايضا ، ادركت ذلك يوم صدور الحكم » (ص ١١) .. ومن هول هذا الواقع الراعب عناق لحظة الوعي الضارية بتدفق طوفانات الحب في القلب الذابل صرخت بالحقيقة الدامية التي حبستها بين الضلوع ثلاثين عاما .. حقيقة الاب المفقود .. « لا تحاسبني واستعد للبحث عنه » (ص ١١) عن الاب الذي يعوض وجوده القيم المفقودة والتي فقدت بسببها الام ابنها ، الابن الذي دافعت عنه حتى الاستماتة، أفنت الحياة كلها من اجله ، تقذف به في لحظة يأس وامل الى دروب الواقع .. تحكي القصة ثم تؤكد انه سيهيىء للابن القيم التي لم تتمكن من توفيرها له « كنت غنية حقا ولكني لم اهيىء لك كرامة ولا عملا ولا سلاما » (ص ١٧) .. ولكنه .. الاب المفقود « ستجد في كنفه الاحترام والكرامة » (ص ١٤) .. تقول كل هذا ثم تموت .. ويموت معها الماضي كله ، وتترك الابن فوق دروب البحث بلا زاد .. واذا اضفنا الى كل الدلالات التي تبرق عبر حديثنا عنها والتي تشي برمزيتها ، ان مصر عند نجيب محفوظ دائما ما تتجسد في صورة المومس ، حميدة في (زقاق المدق) ونور في (اللص والكلاب) .. استطعنا ان نعثر على بعض وجوهها الرمزية ، وان كان ليس من الضروري ان تعني مصر بطريقة حرفية ، ولكن دلالات كونها مومسا ، ودلالات المومس الثرية في ادب نجيب محفوظ ، تضيف الى ملامحها الشخصية ابعادا خصبة اخرى ، وهذا هو ما اردنا ان نركز عليه ...

صدر حديثا :

أعيار

مجموعة قصص

بقلم

عبد الله نيازي

٢٥٠ ق. ل

دار الاداب

(٤) سيد سيد الرحيمي .. المجهول المعجز

من البداية لاح مغرقا في الالغاز ومرتبطا بالقيم ، بالدرجة التي يصبح القول معها بأنه مجرد آب مفقود ، درب من السذاجة المفرطة . ولذلك فاننا سنحاول ان نستكنه بعض ابعاد شخصيته ... تقول بسيمة عمران « كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم أعد ادري شيئا » (ص ١٢) .. وتقول عنه ايضا « انه سيد ووجيه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا لنفوذه ، لم يكن في ذلك الوقت الا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره » (ص ١٢) .. سيحررك من ذل الحاجة الى اي مخلوق بما سيهيء لك من عمل غير البلطجة والجريمة فتظفر أخر الامر بالسلام » (ص ١٤) .. « اؤكد لك ان المال ليس الا حسنة من حسناته » (ص ١٤) .. يسأل صابر عنه خليل ابو النجا فيقول « غير مستبعد انني سمعت عنه » (ص ٣٠) ويقول احسان الطنطاوي المشغول الرأس بالحسابات لا القيم « أنا رجل عشت في مختلف الاوساط في القاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم اسمع عنه » (ص ٥٢) .. وفي الحلم رآه صابر « نظر صوبه في رهبة حقيقية اذ وجده أضخم وافخم من اي خيال » (ص ٦٧) ويقول عنه علي برهان .. الصحفي المخضرم الذي عاش تسعين عاما « كان وما زال مليونيرا ، لا عمل له الا الحب ، وكلما وقع في مأزق هاجر من مدينة الى مدينة ، مواصلا ممارسته لهوايته » (ص ١٧٨) كما انه « يذكر انه تلقى رسائل منه من جميع القارات (ص ١٧٩) .. فما هي دلالة كل هذا ؟.

علينا ان نرتب ما لدينا من معلومات عنه ونموضعها في أطارها الاجتماعي حتى نخرج بصورة واضحة له . فقد كان زوجا لبسيمة عمران الرمز منذ ثلاثين عاما ... وكان وقتها طالبا بالجامعة تهتز الدنيا لدى محضره .. فاذا اخذنا في الاعتبار ان الرواية كتبت في بدايات ستينات هذا القرن ما بين ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .. كانت الفترة التي كان فيها سيد سيد الرحيمي طالبا في الجامعة وزوجا لبسيمة واقعة بين ١٩٣٠ ، ١٩٣٤ ، وهذه الفترة على وجه التحديد من اكثر الفترات اكتظاظا بمعارك شعبنا من اجل الديموقراطية . اذ تتابعت على وجه الواقع المصري في تلك الفترة حكومات العهد السياسي ، ابتداء من حكومة اليد الحديدية برئاسة محمد محمود ، حتى حكومة توفيق نسيم والقوادين ، مرورا بحكومة اسماعيل صدقي الاوتوقراطية وحكومة عبد الفتاح يحيى العميلة .. وصادرت الحكومات الاربع دستور ١٩٢٣ ، وجاءت حكومة صدقي ببديل اخر مزيف هو دستور ١٩٣٠ .. وبصفة عامة اتسمت هذه الفترة بالمصادرة المستمرة لحريات الجماهير الشعبية على وجه التحديد . ومن ثم اندفع طلبة الجامعة ، طليعة البرجوازية الصغيرة التي ظلت حليفا مستمرا للجماهير الشعبية في ثوراتها المستمرة من اجل الحرية منذ بداية الثورة القومية حتى اليوم ، يقودون المعركة ، ويحملون لواء الكفاح في تلك الفترة ... لذلك فان ربط سيد سيد الرحيمي بطلبة الجامعة في هذه المرحلة من تاريخنا الكفاحي من اجل الديموقراطية ، له دلالاته الثرية ، خاصة وقد قيل ان الدنيا كانت تهتز لمحضره آنذاك ، وفعلا كانت تهتز الدنيا لاضرابات طلبة الجامعة وحركاتهم العصيانية في تلك الفترة . يؤكد هذه الدلالات ارتباط الاب بهذا الشعار الثلاثي .. الحرية والكرامة والسلام .. والذي يقابل اسم الاب الثلاثي الذي ركز الكاتب على ثلاثيته .. مقابل تركيزه على ثلاثية شعاره . واذا اضفنا الى كل هذا الدلالات التي تشي بها الابوة وخاصة في العقلية المصرية المرتبطة بهذه الفكرة الى درجة كبيرة ، وطوفانات الوعي بحقيقة الواقع والتي كانت تنوش اطراف وعي صابر متمثلة في الصمت الكئيب الذي يسيج كل شيء والظلام الذي يلف كافة الاشياء « ورأى الظلمة مرة أخرى ، سواء فتح عينيه استطلاعا او اغمضهما شبعا وارتياحا » (ص ٦٢) .. « واحيانا يخيل اليه ان الصمت يخنق العالم » (ص ٧٠) .. وتوق صابر الدائم الى التعرف على جذوره ، والتي انطلقت اشباعا لهذا التوق كل الفلسفات الباحثة عن اصل الوجود الراغبة في تقديم تفسير مقنع لبدايات الحياة الانسانية ومن ثم لنهايتها .. اذا اضفنا كل هذه الاشياء الى ارتباط الاب بهذه الفترة، لاح لنا المعادل الواقعي لشخصية هذا الاب بطريقة جد واضحة .. وبدا هذا الاب المجهول العجوز المفقود تجسيدا لكل القيم المفقودة في واقع صابر .. واول هذه القيم .. هي الحرية .. الحرية والكرامة والسلام.

(٥) الشحاذ . ومعادلات المطلق

ثمة معادلات اخرى للقيم الى جانب سيد سيد الرحيمي في الرواية ... اولها الشحاذ ، الذي يرى الصديق الاستاذ توفيق حنا انه بمثابة توقيع نجيب محفوظ على هذه الرواية ، وذلك لتكرار هذا النموذج بالحاح في كافة رواياته .. في المرحلة الاخيرة فقط نرصده في (اللص والكلاب) في صورة الشيخ علي الجنيدي وفي (السمان والخريف) في شخصيتي سمير عبد الباقي والشيخ السلهوبي .. وهو هنا ليس مغرقا في الصوفية فحسب بل هو مغرق في اليأس والتحدي معا ومن ثم يتمثل شحاذا ... يطلب الصدقة من بطل روايتنا الذي « لم تشده الى الدين علاقة تذكر ، ولا شهد النبي دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين » (ص ٤٧) .. ولكنه لا يستدعي منه سوى الكراهية .. ذلك لانه كان يلوح في كثير من الحالات مرادفا للضمير في أعماقه ومن ثم كان يمارس عليه ، وبطريقة غير مباشرة ، كأغلب القيم الميتافيزيقية المعاصرة ، سلطات لا محدودة .. ولذلك يهتف حينما يفاجأ بمنظره المرعب (ص ١١١) وهو في عز الازمة « اي انسان يعطف على هذا الشحاذ » (ص ١١١) .. غير ان الشحاذ، وبعد ان يتعقد الموقف بصورة مرعبة، يهتف وسط الظلام « ربنا ينور بصيرتك . دعوة مستجابة باذن الله من سائل مسكين » (ص ١٦٣) .. ثم يظهر في النهاية ان هذه الدعوة هي التي ايقظت المخبرين النائمين ليتتبعوه الى النهاية المحتومة .

وهناك الى جانب هذا العارف بالله سيدي الشيخ زندي المتربع في حجرة تحتانية تعيش في مغيب متصل، والذي تشمم عبير منديل صابر ثم اطلق حدسياته بوجود من يبحث عنه عبر عبارات مغرقة في الالغاز (ص ٢١) واللاجدوى .. ثم قارىء الغيب بالدرب الاحمر المدعو بالشيخة زهرة والذي « لما بلغ مسكنه وجده مغلقا مختوما بالشمع الاحمر ، وقيل له ان البوليس قبض عليه بتهمة الدجل . وتساءل صابر، متى كان الدجل تهمة ؟ » (ص ٩٢) .. كل هذه الشخصيات تجسد شتى ابعاد المطلق .. وتؤكد في الان نفسه لا جدوى الارتكان الى الحلول التي يقدمها ، وان كانت شخصية الشحاذ اكثرها وضوحا قد جسدت الى جانب ذلك القوى الضميرية ، ومن ثم كانت تشي ببدايات الكثير من الاحداث وتعد بخواتيمها .. نجعله يصرخ « اللعنة .. متى يخرس الشحاذ البشع » (ص ١٢٩) .

***

الشخصيات الثلاث السابقة تقدم الى جانب المعادلات التي اوضحناها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، فان جسدت بسيمة الماضي ، فان سيد سيد الرحيمي يعد بالمستقبل ، بينما يشي الشحاذ بكثير من ابعاد الحاضر .. وكلها دلالات قيمية بالدرجة الاولى ، اما الشخصيات الاربع الباقية فانها تمثل دلالات واقعية بالدرجة الاولى ايضا ومن ثم فانها الشخصيات الاكثر فاعلية والاشد اهمية في هذه الرواية . اما بقية الشخصيات الاخرى فانها تمثل الاطار العام الذي تتحرك في نطاقه هذه الشخصيات الاساسية ، ومن ثم لم تظهر طوال الرواية اي خريطة للعلاقات بين هذه الشخصيات القيمية الثلاث وبعضها ، بينما تزاحمت خريطة العلاقات متشابكة بين الشخصيات التي تمثل العلاقات الواقعية وتقدم تلخيصا روائيا لشتى ما في الواقع من تيارات .. ولنحاول التعرف على هذه الشخصيات في اطار خريطة العلاقات الدائرة فيما بينها ، وفي الاطار العام الذي تحركت خلاله .. اطار القيم .. ولنبدأ بصاحب الفندق .

(٦) خليل أبو النجا .. صاحب الفندق

يبدو هذا الرجل العجوز رغم ثانوية الاحداث التي شارك فيها مسيطرا على كل احداث الرواية .. مالكا لمقدرات شخوصها .. فهو صاحب (فندق القاهرة) التلخيص الروائي للواقع الكائن فعلا والذي يعيش فيه كل من صابر وكريمة ... وهو في الان نفسه رمز لسيطرة القوى الرجعية والمتخلفة على وجه هذا الواقع « انت سر من الاسرار يا عم خليل . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان » (ص ٣٥) .. ولذلك فانه يستوي لدى صابر ان يجيء ابوه او ان يذهب ذلك الوجه الرجعي المسيطر على الحياة .. لان دلالة الحدثين واحدة « يستوي لدي ان يجيء ابي او ان تذهب انت » (ص ٨٥) .. خاصة وانه « اما انت يا عم خليل فلن تتغير نفيرا يذكر بعد الموت » (ص ٨٥) .. فهو ميت فعلا بشكل او باخر ،وسيطرته على وجه الواقع تعني سيطرة الموت على الحياة ، ومن ثم يستوى ان يذهب الموت ليترك للحياة فرصة الانطلاق ، او ان تجيء الحرية الحقيقية لتنهبها هذه الفرصة . خاصة وان هذا الموت المسيطر « بيده المعروقة المرتعشة والكوفية السوداء التي اخفت عنقه النحيل » يمارس كل غرائزه على حساب الحياة .. « خير ما تفعل يا عم خليل هو ان تموت . انا اعرف عنك اكثر مما تتصور . انت لا تنام الا بالنوم وبعد ان تدلكك كريمة طويلا . وسعادتك تمارسها في الحنان العقيم ، ولذتك الوهمية عندما تجردها من ثيابها فتذهب امامك وتجيء ثم تحبها براحتيك » (ص ٨٥) .. وكأي ممارس للسيطرة يلهب الباقين بسوط الحاجة « غريزة النقود هي الغريزة الوحيدة التي حافظت على قوتها عند الرجل » (ص ٧٨) .. ويكبلهم بالقيم الجوفاء « لم يكتب كل شيء باسمي الا بعد ان اخذ علي عهدا بالوفاء ، قال لي انت يدي وعيني وابنتي وزوجتي ، لا تنغص على صفوة الايام الباقية » (ص ٩٧) .. بكل شيء دعم سيطرته.. ومن ثم يلوح هو العقبة الاساسية والوحيدة بين صابر وكريمة .. وبينه والرحيمي .. وبينه والحرية والكرامة والسلام ... ولذلك يجيء اغتياله في النهاية ضمن رغبة صابر المشوقة الى اغتيال كافة الشروط اللاانسانية من وجه الحياة . خاصة وان هذا العجوز الكئيب غير القادر على خدمة نفسه في هذا الواقع مسيطر على كل ما فيه ومسخر كل افراده لتلبية مطالبه واشباع غرائزه ، مكتفيا بمراقبة ساحة الفندق التي تلوح بكل ما يدور فيها من مناقشات تلخيصا روائيا للواقع ككل .

(٧) صابر .. ابن جيلنا

صابر هو الشخصية الرئيسية التي يريد نجيب محفوظ ان يقدمها لنا في هذه الرواية ... والتي تجيء كافة الشخصيات الاخرى معمقة لابعادها وموضحة لملامحها ، فلا تعدو كونها شعيرات دموية تصب في شريان الرواية الرئيسي .. صابر .. وصابر شاب في الثلاثين من عمره ، ومن ثم فهو ابن لجيلنا بحق ... يجسد كل عذابات هذا الجيل، وكل جوعه الى الحرية .. يجسد بحثه الدائم عن جذوره ، وعن قيم جديرة يؤمن بها وتوفر له كل ما يفتقده في واقعه من حرية وكرامة وسلام .. يجسد صراع هذا الجيل ضد جدران الصمت وقضبان السجن المركبة داخل كل منا .. يجسد حالة الرعب الدائمة التي يعيشها ، وحالة التمزق الدائمة التي تفتت كيانه ، التمزق بين قيود الواقع كما هو كائن ، وبين صورته المستقبلية التي تلوح صارخة بالالوان مشرقة بالبهجة .

وككل ابناء جيلنا فهو مثقل ضميريا بتركه العفونة التي خلفها الماضي .. بما فيه الملوث بالدعارة والجريمة .. والذي يرادف التكوين الحضاري لابناء جيلنا الذين دعوا مع بدايات اطلالاتهم على الحياة كافة المآسي الدامية التي لطخت بالعار ضمير هذا القرن ... ثم عاشوا واقعا اكثر مأساوية من ذلك الذي دمرت الحرب انسانه .. ومن ثم فان هذا الماضي يدخل ضمن تكوينه الحضاري ، ملوحا له في كل لحظة .. « آه . تحريات . النبي دنيال . الكنار الليلي . بسيمة عمران . سوف تطارده الشبهات بالوراثة » (ص ١٣٤) .. ورغم كل هذا فهو صابر بحق .. يتلقى قصة ابيه المطالب بالبحث عنه بنفس شجاعة ابن جيلنا الباحث عن جذوره التائق الى التعرف على اصوله . « المتطلع بمعجزة الى الحرية والكرامة والسلام » (ص ١٨) .. ومن البداية تنوش فكرة مداعبة الواقع خياله ، خاصة بعد ان نزع جذوره تماما من ارض الماضي وجاء الى القاهرة ، فيعرب لكريمة منذ اللحظة الاولى عن اعجابه بها .. غير ان هذا الواقع الجديد ما يلبث ان يسفر رويدا رويدا عن وجهه الكئيب .. وتتناءى بشائر التفاؤل ... تتدانى علامات التجهم .. « المؤسف انني ظننت ان الذين يعرفونه في القاهرة لا حصر لهم ، ولكني لم اجد حتى الان احدا يعرفه » (ص ٤٠) .. وذهبت كل محاولات البحث هباء « وكل ساعة تمر تقربه من النهاية المخيفة . وماذا بعد الانتظار والجري وراء المجهول في الظلام » (ص ٦٠) .. فهو ككل ابناء جيلنا مطالب بأن يهب حياته المعنى رغم ضآلة ما لديه من امكانيات توشك على النفاد .. ممزق بين كريمة والهم « ولكن ما قيمة اي شيء قبل العثور على الاب » (ص ٦٠) .. ولذلك فانه ما يلبث فور حضور كريمة اليه ان « ضمها اليه بقوة تعادل الصبر المعذب الطويل » (ص ٦١) .. والتحم بها تماما فرأى « الظلمة مرة اخرى سواء فتح عينيه استطلاعا ام اغمضهما شبعا وارتياحا » (ص ٦٢) .. ويقطع نفي كريمة الحازم لاي صلة بينها وبين ذكريات الانفوشي ، خيوط التفاؤل « ولكنك خيبت ظني ، طالما قلت لنفسي اذا كانت هي فتاة الاسكندرية فقد يعني هذا انني ساوفق في البحث » (ص ٦٣) .. فلاح الاب متخليا عنه في الحلم ممزقا لكل الصلات التي تربط بينهما « وهو يكره الاحلام لانها ترجعه الى فترة ماضية من حياته الح فيها عليه الصرع حتى كاد ان يهلكه » (ص ٧٠) مع كل ما للصرع وكراهية الاحلام من دلالات هنا .. وتتتابع احداث الواقع بصورة تدعو صابر الى التخلص من وجهه اللاعادل فيستميت في البحث مناشدا الاب بالعودة « انه هو المحتاج الى الغائب وليس العكس . وانه لا يحتاج اليه حبا في الحرية والكرامة والسلام فحسب وانما خوفا من التردي في الجريمة » (ص ٨٦) .. وزحف اليأس والفتور .. « ولم تعد انباء التليفون تهز أعماقه ، ولكن آه لو يخلف ظنه ويجيئه بالمعجزة في هذه اللحظة من اليأس والعذاب » (ص ٩٦) .. ويتردى في الجريمة .. ويواجه عقبها مباشرة الوجه السافر للشحاذ .. « رآه لاول مرة بوضوح على ضوء مصباح . وشد ما اثار اشمئزازه لحد الغثيان . وجه نحيل ضائع المعالم في لحية متلبدة بالقذارة ، وعظام بارزة ووجنتان غائرتان وانف مجدوع . ورأس مغطى بطاقية سوداء يحجب مقدمها حاجبيه . تدمع تحتهما عينان دمويتان مشدودتان الى اسفل » (ص ١١١) .. كل هذا في مقابل جمال صورة وجه صابر الاخاذ .. وفي نفس اللحظة يلوح له الماضي مسؤولا عن كل شيء بعد اليقظة الراعبة على وجه الشحاذ « وأمك هي القاتل الحقيقي لعم خليل ابو النجا » (ص ١١٦) .

ورغم كل هذا فان ارتكابه للجريمة لا يلتصق بقشرة وعيه كثيرا ، لانه جاء ضمن اطار البحث عن الاب الذي يحتل المكان المحوري من كل تفكيره .. لذلك كان يشعر في لحظات كثيرة بهذا الاحساس « ودهمته الحقيقة الغريبة ـ وكأنها تدهمه لاول مرة ـ وهي انه ازهق روحا » (ص١٦١) ... وهتك الشك الجزء الباقي من عقله ، وهتك في الوقت نفسه حياته وحياة كريمة .. ولم يعد امامه في اللحظات الاخيرة سوى الاحتجاج الصامت الذي اطلقه من خلال استسلامه بلامبالاة للمصير الراعب المحتوم .. ذلك لان « امه انشأته على مستوى رفيع من الجاه، فلم يكن بد من ان يعثر على الاب الوجيه المزعوم او يرتكب اشنع الجرائم وهي القتل » (ص١٦٩) .. وجاءت تحليلات الصحافة للمأساة شاهدا اخر على مأساوية الواقع ككل .. حيث لا يبقى من مأساة تهذه سوى وجهها الطريف .. « وقال استاذ علم النفس ان صابر مصاب بعقدة حب الام ، وانه يمكن تفسير اندفاعه الاجرامي بامرين مهمين . فهو اولا وجد في كريمة بديلا عن امه فاحبها . وان لاشعوره اصر على الانتقام لامه فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع في مصادرة امواله كما صادرت الحكومة اموال امه » (ص١٧٠) وبات واضحا المصير الذي

ينتظر اي محاولة فردية للبحث عن القيم المفقودة .. في واقع فاقد لاغلب شروطه الانسانية ... وان اضاف صابر الى المحاولة التي قام بها سعيد مهران من قبله في تحرير وجه الواقع ، ابعادا فلسفية كثيرة، اثرت المحاولة بالدلالات ، وكشفت النقب عن وجه الواقع الحقيقي .

(٨) كريمة .. شبق الواقع

تعمق كريمة مأساة صابر وتثريها بالابعاد التي توضح الاسباب الراسمة للازمة ... اذ تصب ازمتها في الشريان الاورطي لمأساة صابر التائق الى ابيه المفقود .. وتلتحم بها تماما ، فيصبح همه الجديد بعد المضاجعة ان يبقى جوارها لاطول مدة ممكنة (ص٦٣) .. كما انها تلوح من البداية مرتبطة بذكريات الماضي ، ومشكلة واحدا من الابعاد المأساوية للواقع خلال تبديها داخل مغالطته الضارية زوجة لعم خليل.. « وهي تأبى ان تعترف بانها فتاة عطفة القرشي ، لماذا تخفين الاسرار ؟ لانك العذاب والشيطنة . وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالي المفعمة بالشهوات ، والمعارك البهيمية . وهي مثله تغلي في شرايينها دواعي الفطرة والغريزة والنعمي والفحة ، لا كالهام نسمة تستقر في ذروة لا يرقى اليها احد » (٨٧) ... « اما كريمة فامتداد حي لامه فيما تهبه من متعة وجريمة » (ص٩١) .. و « الايام تمر والنقود تتناقص وحكاية الاب امست اسطورة سخيفة لا يركن اليها بحال ولا غنى له عن هذه المرأة فهي حياته والامل الباقي له في الحياة » (ص٩٥) .. يتوحد مصيرها بمصيره « حياتنا واحدة فاذا قضي عليك قضي علي ، ولا حيلة لنا في البحث عن طريق للخلاص من الالم والجنون » (ص١٠٠) .. « وماذا يعني الرحيمي له بعد ما كان ؟ .. الامل الوحيد الباقي هو : كريمة » (ص١١٢) ... كريمة باختصار « ربيبة بلطجية ، جارية سوقية ، زوجة رجل فان ، مدبرة جريمة رهيبة ، خالقة لذات جنونية ، معذبتك الى الابد ، ومجرد وهم لا اساس له سافك الى فندقها الدامي ثم رمى بك الى براثن هذه الحيرة القاتلة » (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .. كل هذه الصفات والاحالات تعطيها دلالات تخرج بها من محدودية الاطار الشخصي الى افاق رمزية وشمولية تنحت ابرز ملامحها من شديد التصاقها بذكريات الماضي والام .. ومن كونها الصورة الراهنة للواقع كما هو كائن ، وبكل ما فيه من تناقضات .. ومن ثم يجيء اغتياله لها في النهاية ، ثورة منه على هذا الواقع .

(٩) الهام .. والحلم

تلوح الهام دائما مرتبطة بالاب المفقود ومتناقضة في الان نفسه مع كريمة .. اذ ان الهام تمثل في المعادلة الروائية الوجه المرتجى للواقع والوعد بالعمل والسلام والحب النقي ... لذلك فهي من اقصى الجنوب بينما صابر وكريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل بينما صابر وكريمة مفتقران الى هاتين الصفتين ، وهي الى جانب كل هذا متمايزة عن كريمة رغم جمال كل منهما وصابر معهما ، والجمال هنا هو السمة المشتركة او الرابطة الفنية القائلة بوجود علاقة ما بين هؤلاء الثلاثة ـ بنوع جمالها الشديد الشفافية كملاك « هي طاقة عبير لطيف يدعو الى استباحة الاسرار ، ليست كالنار التي صهرته بالفندق » (ص٤١) .. « وزاد انتعاشا باشعاعاتها التي ترفعه الى مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس » (ص٤٢) لذلك فان « تجريدها من الثياب غير مجد لان سحرها لا يستقر بموضع بالذات ، شائع كضوء القمر » (ص٤٤) .. ومن ثم فانه يعتبرها من البداية واحة يستظل بفيئها كلما انهكته عذابات البحث « وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج الى استراحة من الظل الظليل » (ص٥٤) ولذلك فانها « تنزوي في ركن كالندم عند طغيان الجريمة » (ص٥٥) ولانها غريبة جدا على واقعه الكائن بالفعل ، فانه يجد نفسه مضطرا الى اختلاق الاكذوبة تلو الاخرى ليحتفظ بها . خاصة وانه يعرف انها « ليست على شفا هاوية مثلك . وليست جائعة الى الحرية والكرامة والسلام . ولا يهددها ماض ملوث قد ينقلب في اي لحظة فيصير لها المستقبل الوحيد » (ص٧٥) ..«ولذلك فان الهام وان قامت في حياته كالمنار ، الا انها اقلقت مخاوفه وعقده . وزعزعت اركان العالم الذي بناه لنفسه واطمأن اليه » (ص٧٦) ولذلك ايضا « فانها تعطيك كل شيء صادق ، وانت لم تعطها الا حزمة من الاكاذيب » (ص٨٤) .. كل ذلك لان الهام سماء صافية يجري تحتها الامان . وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها ايضا سماء الاسكندرية المحبوبة » (ص٨٧) .. و « العقل ينصحه بان يهجر الهام ولكنه لا يستطيع . هي كأبيه فيما تعد به وفي انها حلم عسير التحقيق » (ص٩١) .. العقل هو الذي ينصحه هنا بالتخلي عن ذلك الحلم الجميل المدثر بالصمت . الواعد بالمعجزات ولكنه لا يقدر.. كل الذي يستطيعه هو التذكر الدائم للواقع .. لكريمة كلما عايش الحلم .. الهام .. لحظات .. ولما كان التقاؤه بهذا الحلم غير قائم على اسس متينة ، اذ قام من البداية على اختلاق الاكاذيب ، كان محالا ان يستمر التزاوج بين صابر وبينه ، خاصة في وجود الواقع الكائن فعلا والوثيق العلاقة بصابر الى درجة الزواج منه بوثيقة من دم ... ومن ثم فان كافة الحلول الرائعة المعجزة التي تقدمها الهام للازمة ، ما تلبث ان تلتهمها الحلول الدامية التي تقدمها كريمة ، اذ جاءت حلول الحلم .. بعد فوات الوقت ، ومتأخرة عن الحلول الدموية التي قدمها الواقع الكائن بالفعل .. لا ذلك الذي ينبغي ان يكون ... وفي النهاية يذرف صابر على هذا الحلم «الدمعة الثانية في عمري كله» (ص١٧٤).. بعد ان اختص الام بالدمعة الاولى .. وبقيت الدمعتان الكبيرتان .. مصباحا يلقي دفقات الضوء على احداث الرواية .

***

بعد ان تعرفنا على ملامح كافة الشخصيات الرئيسية في الرواية بالدرجة التي تلقي الضوء على طبيعة خريطة العلاقات الانسانية الكائنة بينهم ، والتي يلوح داخلها كل منهم بتصرفاته وانفعالاته ومشاركاته واحاسيسه ، ابنا حقيقيا ومخلصا لواقعه الدامي الذي يتمزق ابن جيلنا فيه .. وبصفة عامة فان الرواية ككل قد استطاعت ان تكون صدورا حقيقيا عن المرحلة الاخيرة في واقعنا العربي ، حيث جسدت بحق ازمة الصمت الذي يسربل كل شيء في الواقع ويدثر خطى كافة الذين يحاولون اجتياز حدوده ، كما جسدت في الان نفسه ازمة الجوع الى الحرية والبحث المأزوم عنها ، ومن ثم فانها قد ساهمت في رسم معالم (الطريق) الى حل هذه الازمات من جهة ، وكشفت الكثير من جوانب الواقع للقارىء العادي وعمقت رؤيته من خلال الحالة الحسية التي تتركها في النفس المعايشة الحقيقية لاحداثها . مؤكدة الدور الريادي الذي يقوم به فن نجيب محفوظ العظيم في واقعنا الراهن .

القاهرة — صبري حافظ

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر